

بسم الله الرحمن الرحيم

قراءة في واقع الأمة في الفترة الأخيرة⁽¹⁾

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وأزكى صلوات الله وتسليماته على معلم الناس الخير، وهادي البشرية إلى الرشده، سيدنا وإمامنا وأسوتنا وحبيبنا وقائد دربنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن دعا بدعوته واهتدى بسنته وجاهد جهاده إلى يوم الدين.

خير ما أحبيكم به أيها الإخوة والأخوات: تحية الإسلام، تحية من عند الله مباركة طيبة، فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وإنها لفرصة كريمة، ومناسبة طيبة أن نلتقي في هذا المنتدى؛ لنتدارس ديننا ودياننا وأمورنا، لنمضي على بصيرة من أمرنا، وبيننا من ديننا، فنحن أمة العلم والبصيرة والنور. أمة بدأ كتابها بقول الله تعالى: {أَقْرَأْ}، أول ما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم من هذا القرآن: {أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} [العلق: 1].

الأمة التي نتحدث عنها:

أخبرني الإخوة أن هذه المحاضرة أو هذا الحديث تحت عنوان: «قراءة في واقع الأمة»، وإذا ذكرنا كلمة الأمة فلا نعني بها إلا أمة الإسلام، أمة الإجابة، هناك أمة الدعوة وهذه تشمل العالم كله، والبشرية كلها، {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الأعراف:

(1) ألقيت هذه المحاضرة في قاعة الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود في العاصمة القطرية الدوحة، في يوم الثلاثاء 6 شعبان 1422 هـ، الموافق 2001/10/23 م، وكانت ضمن فعاليات المنتدى الثقافي الأدبي الذي نظمته وزارة الأوقاف والشؤون.

[158]، { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ } [الأنبياء: 107]، { تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا } [الفرقان: 1]، فهذه أمة الدعوة.

ولكن حديثنا عن أمة الإجابة، الأمة التي رضيت بالله ربا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً، وبالقرآن منهجاً وإماماً، فإذا قلنا: «واقع الأمة» نعني بها هذه الأمة الإسلامية من المحيط إلى المحيط، من جاكرتا إلى الرباط، الأمة الإسلامية في المشارق والمغرب، وفي الشمال والجنوب هذا هو مقصودنا حينما نقول: الأمة الإسلامية.

والعرب جزء من هذه الأمة، فلا بد حينما نقول واقع الأمة أن نتصور هذه المساحة الجغرافية الكبيرة، بل هذه الأمة تشمل أيضا الذين يعيشون خارج العالم الإسلامي من المسلمين، هناك أقليات إسلامية ربما تبلغ أكثر من ربع المسلمين، بل ربما نحو ثلث المسلمين، يعيشون في أقليات وبعضها أقليات كبيرة مثل الأقلية الهندية حوالي 150 مليون مسلم ويعتبرون أقلية، هناك الذين يعيشون في أوروبا وأمريكا، في الشرق الأقصى، في أفريقيا، في أستراليا، وفي غيرها، كل هؤلاء يدخلون ضمن الأمة، حينما نقول واقع الأمة، يشمل هذا الواقع هؤلاء المسلمين حيثما كانوا.

ماذا تعني القراءة في واقع الأمة؟

والقراءة في واقع الأمة تعني أموراً عدة:

1- قراءة مستبصرة للقرآن والكون:

القراءة في واقع الأمة تعني المعرفة والإدراك والاستبصار لحالة هذه الأمة، نحن أمة: { أَقْرَأَ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ } [العلق: 1]، والقراءة لا تعني فقط

قراءة ما يكتب, وإلا لكان هذا الأمر بالنسبة لمحمد صلى الله عليه وسلم عبثاً, هو لا يكتب, ولا يقرأ ما يكتب, فلماذا أمر بالقراءة؟

القراءة إذن أشمل وأعمق من أن تقتصر على قراءة المكتوب, هناك قراءة كتاب الله المسطور «القرآن», وهناك قراءة كتاب الله المنظور «الكون», علمائنا قديماً يعبرون عن القرآن بـ «المصحف الناطق» ويعبرون عن الكون بـ «المصحف الصامت» والله تعالى قد أقسم بالمصحف الصامت على حقيقة المصحف الناطق فقال: {فَلَا أَقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ 75 وَإِنَّهُ لَفَسَّمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ 76 إِنَّهُ لَفَرَّءٌ كَرِيمٌ 77 فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ 79 تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ} [الواقعة: 75-80], نحن مأمورون أن نقرأ كتاب الله مسطوراً أو منظوراً, كما قال الشاعر قديماً:

تأمل سطور الكائنات فإنها من الملائ الأعلى إليك رسائل
وقد خط فيها لو تأملت سطرها ألا كل شيء ما خلا الله باطل

فالقراءة في الكون قراءة مطلوبة, كالقراءة في كتاب الله؛ القرآن.

2-قراءة التاريخ:

والقراءة للتاريخ مطلوبة: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [الحج: 46], قراءة ما خلفه الأقدمون, آثار الأقدمين, {قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ} [آل عمران: 137], فهذه قراءة للتاريخ, ومعرفة بأحداث التاريخ, وعبر التاريخ.

3-قراءة الواقع:

ثم هناك قراءة للواقع, الواقع الذي سيصبح تاريخا؛ لأن التاريخ كان بالأمس واقعا, ثم أصبح تاريخا, فلا بد أن نقرأ الواقع الذي نعيش فيه, بخيره وشره, بخلوه ومره, بصوابه وخطئه, بورده وشوكه, لا بد من قراءة الواقع على ما هو عليه.

فهذه كلها قراءة مطلوبة من الأمة, أمة: {أَقْرَأْ}.

شرط القراءة أن تكون «بسم الله»:

ولكنها مطلوبة أن تقرأ بسم الله, ميزة قراءة الأمة عن قراءة غيرها أن قراءتها بسم ربها: {أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} [العلق:1], هناك من يقرأ باسم الهوى, وهناك من يقرأ باسم الطاغوت, وهناك من يقرأ باسم قوم من الأقوام, وهناك من يقرأ قراءات مختلفة؛ تتعدد بواعثها, وتتنوع أهدافها, ولكن قراءة المؤمن وقراءة الأمة المؤمنة هي قراءة «باسم الله», والله هو الحق المبين, {دَلِّكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [الحج: 62], {فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالَةُ فَأَنَّى تُصِرُّونَ} [يونس: 32], فإذا قرأنا باسم الله فنحن نقرأ باسم الحق, الذي: {لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفَةٍ تَنْزِيلٍ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت: 42].

كيفية قراءة الواقع:

مطلوب منا أن نقرأ الواقع, وإذا كان الواقع أليما ومررا, كما نعيشه نحن الآن؛ في هذه الأيام, وفي هذه الظروف؛ تكون القراءة مؤلمة أيضا, ولكنها على إيلامها لا بد منها.

ولكن أيها الإخوة: كيف نقرأ الواقع؟

1-قراءة شاملة مستوعبة:

نحن في حاجة إلي أن نقرأ الواقع أيها الإخوة قراءة صحيحة, وقراءة شاملة مستوعبة، وقراءة متوازنة، هناك من يقرأون الواقع قراءة انتقائية كما يقولون. يعني يقرأ من الواقع ما يحلوا له، ما يكون في صفه، وما يكون ضده لا يقرأه، لا يعيره إلتفاتاً، لا يصغي إليه، يعتبره كأنه لم يكن، وهذا ليس إنصافاً وليس عدلاً، لا بد أن نقرأ الواقع كله، كما هو.

هذه هي القراءة الصحيحة، المستوعبة، الشاملة، قرأة شمولية لهذا الواقع، أما أن تذكر الانتصارات وتنسى الهزائم. تذكر المكاسب وتنسى الخسائر. تذكر الاستقامة وتنسى الانحرافات. تذكر الطيب وتنسى الخبيث؛ فهذا ليس من إنصاف النفس، ولا من العدل معها. المؤمن إذا غضب لم يخرج غضبه عن الحق، وإذا رضي لم يدخله رضاه في الباطل. يعني إنسان متوازن، فهو عدل حتى مع نفسه، كما قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوِّمِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ} [النساء: 135]، هناك العدل مع نفسك، ومع من تحب، وهناك العدل مع عدوك ومع من تكره، والآية الأخرى تقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوِّمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ءَاعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [المائدة: 8]، فإذا أردت أن تقوم الواقع تقويماً صحيحاً فكن عدلاً مع نفسك، وكن عدلاً مع عدوك.

روى مسلم في صحيحه من حديث المستورد القرشي، وفيه أنه قال عند

عمرو بن العاص: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «تقوم الساعة والروم أكثر الناس» فقال له عمرو: أبصر ما تقول؟! قال: أقول ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم, قال: لنن قلت ذلك إن فيهم لخصالا أربعا؛ إنهم لأحلم الناس عند فتنة, وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة, وأوشكهم كرة بعد فرة, وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف, وخامسة حسنة وجميلة وأمنعهم من ظلم الملوك⁽²⁾.

شهد لهم عمرو بن العاص الذي كان في ذلك الوقت بينه وبين هؤلاء الناس معارك في أجنادين في فلسطين, وفي فتح مصر وغيرها كان يحارب الروم, ولكنه شهد لهم؛ لأن المسلم ينبغي أن يكون مقسطا ومنصفا حتى مع أعدائه ليعرفهم على حقيقتهم بمزايهم وعيوبهم, لا يحاول أن يضخم في العيوب وأن يقلل في المزايا, ولا العكس.

ومن القراءة المستوعبة: أن يقرأ الواقع بكل جوانبه, أعني أن يقرأ الواقع الاقتصادي؛ كما يقرأ الواقع السياسي. ويقرأ الواقع الفكري والثقافي؛ كما يقرأ الواقع الديني والأخلاقي. ويقرأ الواقع الأسري والاجتماعي؛ كما يقرأ الواقع العسكري والجهادي. ويقرأ الواقع الإقليمي والدولي؛ كما يقرأ الواقع القطري والمحلي.

فهذه النواحي كلها تمثل الواقع الذي تعيشه الأمة وتجسده.

فليس من الواقعية في شيء أن نركز على الإنجازات الاقتصادية؛ كزيادة الإنتاج, وترشيد الاستهلاك, وإنشاء مؤسسات عمرانية متنوعة, في حين

(2) رواه مسلم في «الفتن» (2898)، وأحمد في «المسند» (1802)، وهذا لفظ مسلم.

نغفل انتهاك الدستور, وانتقاص حقوق الإنسان, أو الجور على حرمان الأفراد, أو حماية الكبراء من أن تتألم المحاكمات, وتمسهم المحاسبات؛ فكأنهم لا يسألون عما يفعلون!

وليس من الواقعية الشاملة: أن نركز في جانب الرياضة على كرة القدم, ونهمل كل ألوان الرياضة الأخرى من: السباحة, والرماية, وركوب الخيل, وألعاب القوى... إلي آخر ما يتصل بالجسم الإنساني, ووجوب العناية بصحته ونظافته وقوته, وقدرته على سرعة الحركة, وتحمله للخشونة, وعافيته من الأمراض.

والحديث في هذا العنصر-عنصر الشمول والاستيعاب للواقع- يطول والأمثلة فيه كثيرة ومتنوعة. وما ذكرناه فيه الكفاية.

2- قراءة بعيدة عن التهويل والتهوين:

بعض الناس ينظر إلى العيوب بميكروسكوب, يجعل من الحبة قبة, ومن القط جملا كما يقولون. لا. حاول أن تنتظر إلي الأشياء كما هي, فلا تضخم العيوب ولا تنس المزايا والحسنات, وهذا أيضا يوصلنا إلى أمر آخر في القراءة لكي تكون قراءة منصفة, وتكون القراءة صحيحة وحقيقية يجب أن تبتعد عن أمرين: التهويل والتهوين.

كثيرا ما نقرأ الواقع فنهول من الأمر ونضخم فيه, كما نرى بعض الناس حينما يتحدث عن إسرائيل؛ كأنما إسرائيل هذه متألهة في الأرض, نحن أحجار على رقعة الشطرنج. والدنيا لعبة إسرائيل, وكل شيء من عمل اليهود

ومن كيد إسرائيل, حتى الأحداث الأخيرة هذه (3), بعض الناس يقول إسرائيل هي التي عملت هذه, لا يستطيع أحد أن يعمل هذا الأمر -بهذا الابتكار- وهذا التخطيط وهذا التنظيم وهذا الإبداع- إلا الموساد. كأننا نؤله هؤلاء الناس.

هذا نوع من التضخيم والتهويل في هذه الأمور, وكأننا نحقر أنفسنا, حتي لو أننا عملنا شيئاً فيه تخطيط وعقل وإدراك وتنظيم نستكثره على أنفسنا.

فأقول: التهويل هذا قضية خطيرة جداً, فإذا هولت من أمر عدوك وهونت من أمر نفسك, أو العكس, كثيراً ما يحدث العكس, اننا نهون من أمر العدو, كثيراً ما سمعنا في الزمن الماضي أن هؤلاء حفنة من الناس, وأننا سنؤدبهم, ونؤدب من وراءهم, سنرمي بهم في البحر, وسنلقي بهم في كذا, ثم عندما التقينا بهم للأسف لم يكن الأمر كما قيل من قبل.

فالتهوين أيضاً مرفوض كالتهويل, نريد أن نعرف الأمور على ما هي عليه, لنستطيع أن ندرك حاضرننا, ونستشرف مستقبلنا, ونحدد ماذا نفعل بعد ذلك.

القرآن حينما تحدث عن غزوة أحد, وغزوة أحد معروف أن المسلمين انتصروا فيها في أول الأمر, ثم انكسروا وأصيبوا بما أصيبوا به؛ نتيجة عصيانهم لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما سال لعابهم إلي الغنائم, وحدث ما حدث, قال القرآن: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِأِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرْكَبْتُمْ مِنْكُمْ مِّن يُّرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّن يُّرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو

(3) أحداث 11 سبتمبر 2001م المعروفة.

فَضِّلْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ { [آل عمران: 152]، رأيتم النصر أمامكم: { مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ }، فقال سيدنا عبد الله بن مسعود: ما كنت أرى أن أحدا من أصحاب رسول الله يريد الدنيا؛ حتى نزلت فينا يوم أحد: { مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ } (4)، { مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا }، حتى الصحابة منهم من يريد الدنيا، هناك الذين أردوا الغنائم، وتطلعوا إليها؛ هم الذين جلبوا على المسلمين ما جلبوا، { ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ } أيضا لأن هذه كانت غلطة طارئة، وليست خطأ ثابتا في حياتهم قال: { إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا } وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ { [آل عمران: 155]، كان منهم عثمان بن عفان، وبعض الصحابة الكبار، إن الله غفور حلیم، فبين لهم الأمر على حقيقته، { أَوْلَمَّا أَصَبْتُمْ مُمْسِيَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مَثَلِيهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [آل عمران: 165]، من أين جاءهم هذا؟ { قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ }، فمن المهم جدا أن نعرف أسباب ما يحدث.

القراءة المستوعبة ليست أن تقرأ الخبر قراءة سطحية، حدث كذا وكذا، لابد أن تعرف، الذي حدث هذا لماذا حدث؟ ما الدواعي التي أدت إليه؟ ما الأهداف المتوخاة منه؟ ما النتائج والآثار التي تترتب عليه؟ هذه القراءة الصحيحة المستوعبة المتكاملة المتوازنة، كل واحد يقرأ الأحداث بناء على

(4) رواه الطبراني في «الأوسط مختصرا» (106/2) وقال: لم يرو هذا الحديث عن السدي إلا أسباط، وهو عند أحمد مطولا في «المسند» (4414) وابن شيبه في مصنفه كتاب «المغازي» (371/7) بلفظ: فلو حلفت يومئذ رجوت أن أبر إنه ليس أحد منا يريد الدنيا حتى أنزل الله عز وجل: { مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ }، وقال الهيثمي في «المجمع»: رواه أحمد وفيه عطاء بن السائب وقد اختلط (157/6).

خلفية فكرية معينة, يعني الماركسي يقرأ الأحداث والواقع بناء على نظريته المادية الجدلية التاريخية؛ أن كل شيء يتأثر بالمادة, المادة هي التي تصنع الأفكار, وتصنع الأحداث, والاقتصاد هو الذي يسير الأحداث, وعلاقات الإنتاج هي التي تفعل كذا وكذا, فكل شيء يفسر هذا التفسير.

الليبرالي يفسر كل شيء حسب الفلسفة الفردية النفعية.

قراءة الأحداث ينبغي أن تكون وفق سنن الله:

المسلم يقرأ كل شيء قراءة إسلامية, يقرأ الأشياء قراءة المؤمن الذي يرى أن هذا الكون يديره الله تتت, ولكن المؤمن يرى أن الله ربط هذا الكون بشبكة من الأسباب والمسببات, والسنن التي لا تتبدل ولا تتحول, {فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا} [فاطر: 43], ولذلك لا يقرأ الأشياء أنها تحدث اعتباطاً, لا, ليس في الكون شيء يحدث اعتباطاً, كل شيء له أسبابه, وله نتائجه, فلا بد أن تقرأ الأحداث في ضوء السنن. هذه السنن لم يضعها الله تعالى في هذا الكون عبثاً ولا لعباً, فمن المهم جداً أن ندرس سنن الله في الكون, ونعرف أن الأشياء لا تأتي اعتباطية ولا عبثية, فهذا أمر لا بد منه.

هذه قراءة الإنسان المسلم يقرأ الأحداث بهذه النظرة, والقراءة الإسلامية غير القراءة الدينية التقليدية, يعني بعض الوعاظ والخطباء إذا حدث حدث يقولون: هذا بذنوبنا, ومما كسبت أيدينا, وتوبوا إلى الله. هذا أمر صحيح: {وَمَا أَصْبَحُكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ} [الشورى: 30], إنما لا يكفي أن تقول: إن كل شيء يحدث من ذنوبنا, ما هي هذه الذنوب؟ ما هي الذنوب التي أدت إلى هذا الأمر؟ القراءة الصحيحة أيها الإخوة لا بد أن تحلل

ماذا حدث وكيف حدث ما حدث؟ وما الأسباب التي أدت إلي هذا الأمر؟ الأسباب الفكرية، والأسباب النفسية، والأسباب الاجتماعية، والأسباب الاقتصادية، والأسباب الأخلاقية، والأسباب السياسية، هناك مجموعة من الأسباب، ليس هناك تفسير واحد.

التفسير الأحادي للتاريخ مرفوض:

هناك في قراءة الواقع البشري والتاريخ البشري؛ هناك بعض التفسيرات يسمونها التفسير الأحادي، يعني هناك من يفسر كل شيء بالأقتصاد، مثل التفسير الماركسي، عندهم الإنسان حيوان منتج، أهم شيء في الإنسان أنه منتج، لا يقولون: إنه مفكر، أو إنه متدين، أو اجتماعي... أو كذا، فقط هو منتج، الناحية الاقتصادية فقط.

وهناك آخرون يجعلون العامل النفسي هو المؤثر في السلوك البشري، مثل مدرسة التحليل النفسي الشهيرة؛ مدرسة فرويد، الذي يرى أن الغريزة الجنسية هي وراء كل سلوك بشري، يعني أن غريزة واحدة هي التي تفسر كل السلوك البشري؛ الاقتصادي، والسياسي، والاجتماعي. وله تفسيرات غريبة في هذه القضية.

وواحد آخر يقول: إنها غريزة حب السيطرة والاستعلاء... وهكذا.

هناك التفسير الجغرافي؛ يرى أن الجغرافية والبيئة الجغرافية هي المؤثرة في السلوك الإنساني.

نحن نقول: إن هذه التفسيرات الوحدية؛ أنك تجعل سببا واحدا وراء كل شيء هذا غلط، نحن نقول: إن العمل الواحد قد تكون وراءه أسباب عدة،

وتفسيرات عدة، قد يشترك فيها الاقتصاد، وتشترك فيها الجغرافية، وتشترك فيها عوامل نفسية، وتشترك فيها عوامل دينية، وتشترك فيها عوامل سياسية، كل هذه ممكن تؤثر في الحدث، فلا بد لكي تكون قراءتنا قراءة صحيحة: أن ندرك الأمر من هذا الأفق الواسع، فهذه هي القراءة التي نطلبها لواقع الأمة.

عشر سنين غير كافية لدراسة واقع الأمة:

الإخوة حينما حدثوني قالوا: نريد أن نتحدث عن واقع الأمة في عشر سنوات، وأنا في الحقيقة أرى أن عشر سنوات ليست كافية لننظر فيها لواقع الأمة، أنا أرى أن نأخذ شريحة معينة، كأن نقول مثلا: الربع الأخير من القرن العشرين، أو الخمس الأول من القرن الخامس عشر، من بداية القرن الخامس عشر ماذا حدث للأمة؟ لتكن شريحة معقولة لتتأمل ماذا حدث فيها من أحداث.

وأنا في الواقع لا يتسع المجال لي لأتأمل في الأحداث التي حدثت خلال سنة 1400 هـ إلى 1422 هـ، أو من سنة 1975 م إلى سنة 2001 م.

أحداث نحتاج الوقوف عندها ومحاضرة واحدة لا تكفي:

يعني هناك أحداث كبيرة، وبعضها له غور وله أثر عميق، ولو ذكرت بعض هذه الأحداث المهمة التي حدثت في هذه الفترة، مثل حادثة احتلال الحرم المكي، بدأنا القرن الخامس عشر الهجري، وكان أول حدث في القرن الجديد احتلال الحرم المكي، حادث في غاية الخطورة، الحرم الأمن أصبح ساحة للحرب، وبناء على تصورات وأوهام غير صحيحة، هذا حدث خطير نحتاج إلى أن نعلق عليه ونطيل التعليق.

هناك حدث الثورة الإيرانية.

هناك حدث تصاعد الصحوة الإسلامية، هذا من أهم الأحداث التي حدثت، تصاعد المد الإسلامي، أو ما سمي بالصحوة الإسلامية، كان يسمى: اليقظة الإسلامية، البعث الإسلامي، الإحياء الإسلامي، إلى أن اصطلح الناس على تسمية هذا بالصحوة الإسلامية، تصاعد الصحوة وهذا أمر يحتاج إلى حديث طويل.

حرب أفغانستان وما حدث فيها من تجمع المسلمين من أنحاء العالم للوقوف في وجه أعتى دولة إحادية في تاريخ العالم، القوة الثانية في العالم، وأكبر قوة إحادية في التاريخ، ثم سقوط الإتحاد السوفييتي هذه القوة العظمى انهارت وبسرعة وبدون مقدمات كافية، ثم ترشيح الإسلام لأن يكون هو العدو البديل والخطير المرتقب، بعد سقوط دولة الشر كما سماها ريجان، رشح العالم الإسلامي لأن يكون العدو القادم للغرب.

ثم احتلال الكويت وما حدث من مصيبة، وما جرى وراءه من مصائب إلى يومنا هذا، مصائب أرى أنه سيستمر على الأقل نصف قرن قبل أن تداوي الأمة جراحها في هذا الحدث.

الجزائر والانتخابات في الجزائر ووصول الإسلاميين بانتخابات حرة نزيهة إلى السلطة بأغلبية كبيرة، هذا حدث من الأحداث المهمة في التاريخ.

حرب البلقان البوسنة والهرسك وكوسوفا.

قيام ثورة الإنقاذ في السودان، وقيام دولة إسلامية في السودان.

أحداث ضخمة جدا حدثت وانتهت بهذا الحدث الضخم الكبير العالمي،

أحداث 11 سبتمبر.

كيف تظنون أن أعلق على هذه الأحداث كلها، كيف أقرأ واقع الأمة؟! إن حدثا من هذه الأحداث يحتاج إلى محاضرة كاملة.

الصحة الإسلامية:

ولكن أنا أعلق على بعض الأشياء المهمة، مثل قضية تصاعد الصحة الإسلامية في أوائل هذا القرن كانت الصحة الإسلامية في تصاعد هائل، كل من كان له عين ترى أو أذن تسمع كان يرى هذه الصحة رأي العين، ويراها تنتشر أنوار الصباح في كل مكان. أنا بحكم ترحالي في العالم مشرقه ومغربيه رأيتها في كل مكان، رأيتها في العالم العربي، رأيتها في العالم الإسلامي، رأيتها خارج العالم الإسلامي؛ في أوروبا وأمريكا.

رأيت هذا الشباب الصوام القوام؛ الذي يصوم الاثنين والخميس، ويقرأ القرآن، وكتب السيرة النبوية، ويأخذ نفسه بالتربية الإسلامية؛ رجالا ونساء.

رأيت الحجاب يعود إلى المرأة المسلمة، المرأة المسلمة التي كانت -أيها الإخوة والأخوات- في وقت من الأوقات فاقت المرأة الغربية في التبذل والتعري والتكشف. كنت أمشي في المدن والعواصم العربية فلا أكاد أجد امرأة محجبة. هذا واقع رأيتة بنفسي، في الستينات كنت أمشي في المدن الكبرى الإسلامية والعربية وأجد المرأة العجوز الشمطاء -التي أكل الدهر عليها وشرب- تلبس الذي يسمونه «الجابونيز والميني جيب والميكرو جيب والزفت جيب والبلاوي».

هذا كان الواقع، عادت المرأة المسلمة إلى الحجاب طوعا واختيارا،

الفتيات المسلمات في الجامعات، والكليات، والمعاهد، والمدارس الثانوية. أصبح الحجاب ظاهرة شائعة في عالمنا العربي وعالمنا الإسلامي، هذا كله من آثار الصحوة الإسلامية، الكتاب الإسلامي كان أول كتاب في التوزيع؛ يضرب الرقم القياسي في التوزيع، في أسواق الكتب، ومعارض الكتب الدولية.

الشباب في الجزائر كانوا يقولون لي: كنا ننتظر المعرض الدولي للكتاب، ونبيت أمام باب المعرض فإذا فتح المعرض هجمنا على الكتب الإسلامية فلا تمضي ساعتان أو ثلاث حتى تكون الكتب الإسلامية قد نفذت تماما.

هذا التعطش لقراءة الكتاب الإسلامي، ولذلك أنا أول ما ذهبت للجزائر طلبوا مني أن ينشروا كتيبي في الجزائر وقالوا: الشيء المسموح به عندنا هو الكتب وطبعها. قلت: خذوها وبدون مقابل، واطبعوها. وكذلك الشيخ الغزالي رحمه الله سمح لهم بطباعة كتبه. وقلت لهم هذه الكتب كفيلة بأن تفجر ثورة في الجزائر، وفعلا فجرت ثورة فيما بعد. وقال لي الإخوة: صدقت نبوءتك، تفجرت الثورة الإسلامية، وقام أول حزب إسلامي صراحة في البلاد العربية، الجبهة الإسلامية للإنقاذ.

أيها الإخوة، كنت أذهب لأصلي الجمعة في الجزائر فيحضر في صلاة الجمعة أحيانا 100 ألف، 150 ألف، 200 ألف، بتقدير الذين يحضرون من الصحفيين وغيرهم. المسجد ثلاثة طوابق يمتلئ، والساحات التي حول المسجد والطرق والميادين الموصلة إلى المسجد، تتعطل المواصلات. قال لي سفير قطر هناك: ابني أراد أن يذهب وذهب من الساعة الحادية عشرة والصلاة عندهم من الساعة الواحدة، قال: يريد أن يصلي بقرب الشيخ يوسف

القادم من قطر، فيقول: لم يستطع أن يدخل المسجد حينما ذهب وجد المسجد ممتلئاً ولم يستطع الدخول فيه.

شمول الصحوة لكل الميادين:

هذه صحوة هائلة، الصحوة الإسلامية، كانت صحوة عقول وأفكار؛ تقرأ الكتب.

وصحوة إرادات وعزائم؛ تلتزم بالإسلام.

وصحوة مشاعر وعواطف؛ تعيش مع كل القضايا الإسلامية بالحماس والحب.

صحوة في الجانب الاقتصادي:

صحوة غيرة ودعوة، وصحوة عمل وتطبيق، ظهر هذا العمل في مناسبات شتى، أقامت على المستوى الاقتصادي البنوك الإسلامية والشركات الإسلامية، هذا من عمل الصحوة الإسلامية، كان لها ثمار تطبيقية، كانوا يقولوا: لا تحلموا بأن تقوم بنوك إسلامية، الاقتصاد عصب الحياة، والبنوك عصب الاقتصاد، والربا عصب البنوك، فلا تحلموا بأن يقوم بنك بغير ربا وبغير فوائد، وقامت البنوك الإسلامية، كل هذا من أثر الصحوة الإسلامية.

صحوة في الجانب الجهادي:

وأثرها في الجهاد، الجهاد الفلسطيني قامت الانتفاضة الأولى، وقامت الانتفاضة الثانية، كنا نسميها ثورة المساجد أول ما قامت؛ لأنها قامت في غزة، انطلقت من مساجد غزة، شعاراتها «لا إله إلا الله والله أكبر» وراياتها المصاحف، يحملون المصاحف، ونشيد أطفالها «خيبر خيبر يا يهود جيش

محمد سوف يعود»، هذا كله من أثر الصحوة الإسلامية.

والصحوة الإسلامية بخير والحمد لله، ولكني أقول بصراحة: الصحوة الإسلامية فرضت نفسها على الجميع حتى العلمانيين، ما كانوا يستطيعون أن يقولوا شيئاً في هذه الصحوة، الحكام أنفسهم حاولوا أن يهادنوها أو يتملقوها، ويقتربوا منها، إلى أن حدثت نكبة احتلال الكويت، نكبة احتلال الكويت كان لها أثرها فيما بعد ذلك. وإن كنت أرى أن الصحوة مستمرة والحمد لله، ولكن لو ظل استمرارها في هذا التصاعد لكانت شيئاً آخر غير ما هو الآن. وعلى الصحوة مأخذ:

فإذا كان ولا بد من أن نقرأ الواقع؛ فلنقرأ هذه الصحوة. الصحوة الإسلامية لا شك أنه كانت لها هذه الآثار، ولكن هناك مأخذ على الصحوة الإسلامية. أنا عنيت بالصحوة الإسلامية منذ نحو ربع قرن على الأقل من الزمان، وتابعتها في المشارق والمغرب، وسددتها وانتقدتها أيضاً؛ لأن من الواجب على العلماء والدعاة والفقهاء والمربين: أن يرشدوا هذه الصحوة، وأن يقوموا بتسديد خطاها حتى لا تنحرف مسيرتها، أو يستغلها غير أبنائها.

ولذلك أنا أصدرت عدة كتب في ترشيد الصحوة، لعل أولها كتاب «الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف» وهو الكتاب الثاني في سلسلة كتب الأمة -مجلة الأمة هذه أيضاً كانت من ألسنة الصحوة في العالم، وحينما توقفت وكلمتا توجهت إلى أي بلد في العالم يقولون: لماذا توقفت هذه المجلة وحرزن المسلمون أن يسكت لسان من ألسنة الحق في هذا الزمن- فكتابي «الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف» «الصحوة الإسلامية بين

الاختلاف المشروع والتفرق المذموم» «الصحة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي» «من أجل صحة راشدة» «أين الخلل» (5) وكانت هذه مقالات في مجلة الأمة، الخلل في الأمة الإسلامية والخلل في الحركة الإسلامية، «أين الخلل؟».

لا بد أن يكون هناك خلل لا يجعلنا نصل إلى النتائج التي نتوخاها، نمشي خطوات كبيرة، ولكن لا نصل إلى النتيجة. لا بد أن يكون هناك خلل. لا بد أن نتحدث عن هذا الخلل بصراحة. وذكرت في هذا الكتاب وفي غيره أنواعا من الخلل العقلي، والنفسي، والسلوكي، والاجتماعي، والسياسي. لا بد لكي نرشد مسيرتنا، أن نعرف عيوبنا، كما نعرف مزايانا وحسناتنا، هذا هو الواجب علينا. فهذه قراءة سريعة للصحة الإسلامية.

أحداث 11 سبتمبر:

وهناك من الأحداث التي ذكرتها؛ حدث يجب أن نقف عنده، باعتباره موضوع الساعة، وهو أحداث 11 سبتمبر 2001م.

هذه الأحداث التي هزت العالم، وزلزلت القوة العظمى المتألهة في الأرض، والتي كانت تظن أنها تغزو ولا تغزى، وتضرب ولا تضرب. وأنها في أمن محيط من كل النواحي، الهادي من هنا يحميها، والقاصي من هنا يحميها، فضربت في عقر دارها، ولذلك جن جنونها.

(5) ومنها كذلك: «أولويات الحركة الإسلامية» و «في فقه الأولويات» و «الإسلام والعلمانية وجهها لوجه» و «الثقافة الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة» و «ملاحم المجتمع المسلم الذي ننشده» و «غير المسلمين في المجتمع الإسلامي» و «شريعة الإسلام صالحة في كل زمان ومكان» و «الأمة الإسلامية حقيقة لا وهم».

نحن أنكرنا هذا الحادث منذ وقوعه، أيا كان فاعله، أيا كان دينه، أيا كان وطنه، أيا كان جنسه، سواء كان عربيا أم غير عربي، مسلما أم غير مسلم، شرقيا أم غربيا.

الفرق بين العمليات الاستشهادية و 11 سبتمبر:

نحن ندين هذا العمل، وبعد المؤتمر الوزاري الإسلامي هنا، جاءني عدد من الصحفيين الأمريكيين والغربيين، يسألونني ويريدون أن يستخلصوا من تنويهي بالعمليات الاستشهادية في داخل فلسطين، يريدون أن يأخذوا منها أني أجز هذا العمل.

قلت لهم: هناك فرق بين الأمرين. قالوا: ما الفرق؟ قلت: هذا العمل داخل فلسطين، هذا إنسان يدافع عن وطنه، يدافع الغزاة المحتلين، الذين جاءوا من خارج وطنه، ليطرده من أرضه، ويشردوه في أنحاء العالم. هو يقاوم هؤلاء، وهذا من حقه، من حق الإنسان أن يدافع عن وطنه، ولو بالتضحية بنفسه. فالدفاع عن الوطن أمر مشروع، أقرته الشرائع السماوية والقوانين الوضعية والأعراف الدولية والقيم الأخلاقية.

المقاومة فطرة بيولوجية:

حتى القيم الفطرية البيولوجية، يعني الجسم حينما يهاجمه ميكروب غريب يقاومه ويطرده، فهذه الفطرة.

فلا غرابة إذا وجدنا إنسانا يقاوم الغزاة المحتلين، وهو يقاومهم بنفسه، يفجر نفسه في هؤلاء، في هذا المجتمع العسكري، كله عسكري رجاله ونساءه، يضحي بنفسه من أجل وطنه، فهذا يقاتل في بلده المحتلين. أما هذا

الذي ذهب إلى بلد آخر وغزاه، ثم هو لم يضح بنفسه فقط بل ضحى بأناس آخرين برآء لا ذنب لهم، لم يوكلوه أن يضحى بهم، ركاب الطائرات الأربع هؤلاء هل قالوا لهذا الشخص: نحن مستعدون للتضحية؟

لا لم يوكلوه في هذا، هؤلاء لا ذنب لهم، ففيهم أناس لا ناقة لهم ولا جمل، ولا عنزة ولا حمل، في السياسة، ولا يعرفون فيها، وفيهم عرب، وفيهم مسلمون، وفيهم أفريقيون، وفيهم آسيويون وفيهم من كل جنس ولون، فهناك فرق بين هذا وذاك.

لذلك نحن أنكرنا هذا الحادث من أول يوم. ولكن هل معنى إنكارنا هذا الحادث: أننا نبيح أن يقاوم هذا الحادث بشن حرب شاملة على الإرهاب كما يدعون؟ وأن تبدأ هذه الحرب المجنونة بغزو أفغانستان. هذا الشعب المسكين الجائع البائس الذي عاش أكثر من عشرين سنة يقدم الضحايا وراء الضحايا، ما ذنب هذا الشعب؟ قالوا: ذنبه أن هناك أسامة بن لادن، أنتم حتى الآن تقولون «المشتبه فيه الرئيسي» يعني لم تقدموا أدلة قاطعة، حتى قال وزير الخارجية القطري: إنهم قدموا لنا أدلة ولكنها ليست جوهرية ولا حاسمة، أبالاشتباه تعاقبون شعبا بأكمله؟

الأفغان قالوا: هاتوا لنا أدلة، ونحن مستعدون لتقديمه إلى محكمة شرعية إسلامية، ويأخذ جزاءه، وأنكروا هذه العمليات. ولكن قالوا: ليس هناك دليل على أن ابن لادن هو الذي فعل هذا، وهذا صحيح(6). لا بد أن توجد الأدلة، لا يجوز أن يؤخذ الناس بالشبهة أو بالظنة.

(6) أعلنت القاعدة فيما بعد أنها وراء هذا الحادث، ولم يجن المسلمون من ورائه خيرا.

النبى - عليه الصلاة والسلام- يقول: «على مثل الشمس فاشهد» (7)، وقال: «لو يعطى الناس بدعواهم؛ لادعى ناس دماء رجال وأموالهم، ولكن اليمين على المدعى عليه» (8). فأين البينة؟

لم يقدموا بينة إلى اليوم، وقدموا أناساً؛ تسعة عشر شخصاً، وجد منهم من هو حي يرزق في السعودية، ومن مات من سنين قبل ذلك، ووجد منهم الأطفال.

ثم ما الدليل إذا كان هناك عربي هو الذي خطف الطائرة؟ لا يوجد دليل قاطع. السر في الحقيقة ذهب مع هؤلاء الذين فعلوا ما فعلوا؛ لأنهم أصحاب التهمة الأصليين، وقد انتقلوا إلى جوار الله. هناك قرائن معينة، واحتمالات، وأشياء... ولكن كلها ليست قاطعة.

في حادث أو كلاهما سيأتي اتهموا العرب والمسلمين، ثم ظهر أن الفاعل أمريكي. ما الذي يمنع أن يكون الفاعل أمريكياً، أو يكون الفاعل يابانياً، ممن ينتقمون لهيروشيما وناجازاكي، أو يكون الفاعل صربياً، أو يكون الفاعل من

(7) جزء من حديث ونصه: عن ابن عباس قال: سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الشهادة قال: «هل ترى الشمس؟» قال: نعم. قال: «على مثلها فاشهد أو دع». رواه البيهقي في «الشعب» (455/7) وأبو نعيم في «الحلية» (18/4) وقال: غريب من حديث طاووس تفرد به عبيد الله بن سلمة عن أبيه، وقال ابن حجر في «تلخيص الحبير»: في إسناده محمد بن سليمان بن مسمول وهو ضعيف (198/4) وضعفه الألباني في «شرح العقيدة الطحاوية» (594).

(8) رواه البخاري في «الرهن» (2514) ومسلم في «الأقضية» (1711)، وأبو داود في «الأقضية» (3619)، والترمذي في «الأحكام» (1342)، والنسائي في «السنن الكبرى» كتاب «القضاء» (5951)، وفي «المجتبي» كتاب «آداب القضاء» (5425)، وابن ماجه في «الأحكام» (2321).

هؤلاء وهؤلاء، أو خليط من جملة من البشر؟

لا يوجد عندنا دليل قاطع، حتى ابن لادن حينما قال في شريطة الذي أذاعته قناة الجزيرة: إن هؤلاء كوكبة من كواكب الإسلام لقنوا أمريكا درسا، هذا يكاد يكون نوعا من ركوب الموجة، ويريد أن يخوفهم وهو ليس اعترافا حقيقيا. هذا الكلام لو جاء أمام القاضي لا يحكم بأن هذا اعتراف.

ثم ما هي مسؤولية ابن لادن، هل الذين فعلوا ذلك هل هم جنود عند ابن لادن؟ يعني أحيانا عندما يكون الشخص جندي، ويأمره الضابط افعل كذا، يجب أن يفعل، وإلا يكون متمردا.

هؤلاء ليسوا جنودا في جيش. هم يحملون مسؤولية أنفسهم.

نفرض أن ابن لادن حرضهم، أو نحو ذلك... هل التحريض يجعله مسؤولا مسؤولية كاملة مباشرة؟

قد يكون مسؤولا من الدرجة الثانية أو الثالثة... أو غير ذلك.

إذا ثبت هذا يقينا، ولم يثبت شيء حتى الآن.

ثم ما ذنب هذا الشعب الأفغاني حتى يضرب وتدمر منشآته الحيوية كلها كل ما عنده، كأنما يراد به أن يعود إلى العصر الحجري. كل المنشآت تدمر، وقتل الناس، الليلة أذاعت الجزيرة أن ثلاثة وتسعين شخصا قتلوا في قرية واحدة من القصف الأمريكي، وعرضوا صورهم 93 شخصا في قصف صاروخي واحد!

وهل أفغانستان تستحق كل هذه الترسانة الهائلة والصواريخ الذي يكلف

أحدها مليون دولار وربما أكثر. والطائرات «بي1» أو الطائرات العملاقة التي يسمونها التين السحري... إلخ، علام هذا كله؟ هذا هو التجبر في الأرض؛ محاربة الإرهاب الذي لم يعرف!

تجريم الحركات الجهادية باسم محاربة الإرهاب:

يعني حتى الآن لم يحددوا ما حقيقة الإرهاب الذي يحاربون، ما هو الإرهاب؟ هم يريدونه هكذا ل يبقى عائماً غائماً رجراجاً، ليشمل حركة حماس في فلسطين ويشمل الجهاد في فلسطين، ويشمل حزب الله، ويشمل المجاهدين في كشمير، وقد فعلوا فعلاً، حركة المجاهدين الكشميريين جعلوهم من المنظمات السبعة وعشرين ضمن قائمة الإرهابيين.

محاربة العمل الخيري باسم محاربة الإرهاب:

حتى العمل الخيري أصبح هناك جمعيات خيرية هنا وفي السعودية وفي غيرها، وخصوصاً بلاد الخليج، يريدون أن يجعلوا العمل الخيري متهماً. والعمل الخيري يقوم بإنجازات مهمة. كنت منذ أيام في اجتماع الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية في الكويت، وللأسف العلمانيون يهاجمون العمل الخيري الإسلامي، وجاء أخونا أبو بدر عبد الله المطوع (9) رئيس جمعية الإصلاح جاءنا بإحصائية عما عملته الكويت خلال الثلاثين سنة الماضية، آلاف المساجد بنيت، آلاف المدارس، والكتاتيب، ودور تحفيظ القرآن، ودور الأيتام. آلاف الآبار التي تسقي الناس والمواشي والزرورع أنشئت. ملايين

(9) توفي الشيخ عبد الله المطوع رحمه الله ، في صبيحة يوم الأحد 10 شعبان 1427هـ الموافق 3 سبتمبر 2006م، وقد نعاه الشيخ بمقال تحت عنوان «وأخيراً غاض النبع الفياض بالخير والبذل والعطاء» ونشره موقع الشيخ، وموقع إسلام أون لاين.

يدرسون... أشياء هائلة.

ومع هذا أصبح العمل الخيري الإسلامي متهما باسم الإرهاب، كلمة الإرهاب كلمة يراد أن تتخذ لضرب كل عمل إسلامي، وكل دعوة إسلامية، وكل حركة إسلامية، وقد بدأوا بأفغانستان، ولا ندري بم يثنون، وبم يثنون(10)، الباب مفتوح لم يغلق.

وللأسف إن كثيرا من حكام المسلمين يتجاوبون معهم، لا يملكون أن يقولوا: لم؟ ناهيك أن يقولوا: لا. حتى لم؟ مجرد أن يستفسروا عن هذا أو ذلك لا. هذا هو الهوان والضعف والاستخذاء، أمام هؤلاء، يمكن أن يتجاوبوا للأسف لضرب العمل الإسلامي، والدعوة الإسلامية، باسم ضرب الإرهاب، أو ضرب الأصولية... أو كما يسمونها.

لا بد من محاربة أسباب التطرف:

قابلني في مكنتي القائم بأعمال السفارة الأمريكية، وقلت له: إن ما تقومون به لن يجدي نفعاً، أنا أخشى أن تنفقوا الأربعمائة مليار دولار التي خصصتموها لمحاربة الإرهاب ثم تكون النتيجة صفراً؛ إن لم تكن بالناقص كما يقولون. لن تستطيعوا أن تقضوا على الإرهاب. ممكن أن تقضوا على أسامة بن لادن، وهيئات. ولو قضيتم على أسامة بن لادن سيظهر ألف أسامة بن لادن ولادن؛ إذا لم تقضوا على أسباب هذا الإرهاب، وهي الظلم الواقع على الأرض، والذي تقومون أنتم بمساندته.

(10) ثنوا بالعراق، والدور الآن على سوريا وإيران...

مساعدة إسرائيل على جرائمها من أكبر أسباب التطرف:

وأعظم ظلم واقع في الأرض وأعظم إرهاب تمارسه دولة هو الإرهاب الواقع على الأرض الفلسطينية وعلى الشعب الفلسطيني من هذه القوة المتجبرة في الأرض الكيان الصهيوني، الذي يقتل ويدمر، ويخرب ويحرق. وللأسف تقف أمريكا بجواره.

قلت لهذا القائم بالأعمال: لولا المال الأمريكي، والسلاح الأمريكي، والفيديو الأمريكي، ما استطاعت إسرائيل أن تعربد في المنطقة وتفعل ما تفعل، فإذا لم تقتلعوا أسباب هذا الإرهاب سيظل الإرهاب يفرز رجالا ورجالا، وأناسا بعد ناس، اقتلعوا جرثومة الشر إذا أردتم أن تحاربوا الإرهاب الحقيقي.

ما ذنب البراء؟

ومما قلت: إن الإرهاب لا يقاوم بحرب شاملة؛ لأن الحرب الشاملة قد تصيب البراء الذين لا ذنب لهم، كما نرى فعلا كثيرا من المدنيين العزل في أفغانستان يسقطون، حتى اليوم يقولون 93 قتلوا منهم 18 شخصا من عائلة واحدة، هؤلاء الثمانية عشر تركوا دورهم لأنهم رأوها أنها معرضة للخطر، وقالوا: نذهب إلى مكان آمن، فجاءت القنبلة وقضت عليهم مرة واحدة، فالحرب الشاملة قد تصيب البراء، والإرهابيون الذين تبحثون عنهم سينجون؛ لأنهم أقدر على الاختباء والتخفي، وعندهم ألف وسيلة ووسيلة للنجاة. فأنتم بهذا لا تحاربون الإرهاب.

لا بد من محاربة الفكر بالفكر لا بالإرهاب:

ثم قلت له: إن الإرهابي هذا شخص غير عادي، لكي نحارب الإرهابي لا بد أن ندرس نفسيته، الإرهابي شخص صاحب فكرة يقاتل عن فكرته، متعصب شديد التعصب لفكرته، مغلق على نفسه، متعصب لها، هو ليس صاحب مصلحة، ولكنه صاحب مبدأ، عنده فكرة، ومستعد أن يضحي بنفسه من أجل القضية، هو صاحب قضية، فلا ينفع أن تحارب عنفه بعنف مضاد؛ لأن العنف المضاد سيزيده تصلباً وإصراراً على موقفه. إنما حارب الفكرة بفكرة. أقتعه بهذا الأمر، بين له أنه على خطأ، وهذا ليس عملكم أنتم؛ هذا عملنا نحن العلماء والمفكرين والدعاة والذين يقاومون الغلو والتطرف بالمنهج الوسطي، فبهذا وحده نستطيع ذلك، وهذا لا يتأتى بين عشية وضحاها، ولا بين يوم وليلة، هذا أمر يحتاج إلى عمل مستمر، فهذا بالعمل الفكري، حتى أنه قال لي: يعني حرب أفكار؟ قلت: نعم هذه حرب أفكار، فلا بد أن نحارب الفكرة بالفكرة.

تحقيق العدل كفيل بمنع الإرهاب:

وقلت له كذلك: لا بد أن نقاوم المظالم قبل كل شيء إذا أردت أن نكون واقعيين، فبهذا وحده يمكننا أن نقيم العدل في الأرض. العدل هو أساس كل شيء، الله عرع بعث الرسل ليقوموا العدل والقسط في الأرض، {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ} [الحديد: 25]، فلو قام القسط وقام العدل بين الناس وفي هذه الأرض، لانتهدت هذه الظواهر التي نراها، من عمليات العنف أو عمليات الإرهاب، ولكن هذا العنف الذي نراه هو وليد لأشياء أخرى، وليد لضغط على هؤلاء الناس، وشدة الضغط

تولد الانفجار كما يقول علم الفيزياء. لا يمكن أن تضغط على الناس، أن توقد النار تحت المرجل والمرجل يغلي ويغلي لا بد إذا لم يتنفس هذا المرجل لا بد أن ينفجر، في وقت ما.

وحسبي هذه الوقفة السريعة حول هذين الأمرين من أحداث الواقع خلال هذه المدة، تصاعد الصحوّة الإسلامية وأحداث 11 سبتمبر 2001م.

أسأل الله تتنت أن ينيّر لنا الطريق، وأن يجعل يومنا خيرا من أمسنا، وأن يجعل غدنا خيرا من يومنا، وأن يهدينا إلى الطريق المستقيم، إنه سميع مجيب، أقول قولي هذا وأستغفر الله تعالى لي ولكم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

* * *